الفصل الثالث

حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية

١٩٠٧ - ١٩١٤

وموقفه من قضايا التعليم والمرأة

د. محمد عبد الوهاب(*)

لم يكن قيام حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية في الفترة من ١٩٠٧ ـ ١٩١٤ إلا نتاجاً لتطور الأوضاع في داخل المجتمع المصري ، في فترة اختلطت فيها المفاهيم والثقافات وأصبحت مصر تموج بالتيارات السياسية والاجتماعية فلقد شهدت البلد حملة فرنسية في نهاية القرن ١٨ وبداية القرن ١٩ ، وجاء محمد على يحكم بأسلوب جديد أثر بلا شك على بقية المجتمع المصري ، وجاء إسماعيل ولديه نهم للتحديث وجعل مصر قطعة من أوروبا وتوافد المفكرون والصحافيون إلي مصر التي فتحت ذراعيها لأصحاب الفكر والرأي وتكونت المنتديات السياسية وأصبحت الصالونات الأدبية سمة تميز سراه وأكابر هذه البلد، واختلطت الأفكار والمفاهيم وظهرت الأحزاب في ظل احتلال أجنبي عرفته البلاد منذ عام ١٨٨٢ وكان الاختلاف على كيفية التعامل معه أحد أسباب قيام هذه الأحزاب . وأصبحت الصحافة ركناً أساسياً من أركان أصحاب الرأي والفكر . وخرجت الأحزاب السياسية من رحم هذه الصحف . وظهرت طبقة الأعيان تنشد أن يكون لها دور حفاظاً على مكتسباتها ولم تعد الثقافة ترفاً بقدر ما هي أداة تستخدم للدفاع عن القضية المصرية .

وكان حزب الإصلاح واحداً من نتائج هذه المتغيرات طارحاً برنامجه محاولاً جذب التيارات سواء المحافظة أو المتطلعة إلي الأخذ من الوافد الجديد وانعكس هذا بدوره على معالجة للقضايا المجتمعية . ووضح هذا في موقفه من قضية التعليم والمرأة . وهو ما سنحاول

(*) قسم التاريخ آداب عين شمس .

obeikandl.com

أن نعرضه في هذا البحث اعتماداً على منشورات الحزب وجريدته المؤيد التي صدرت منذ عام ١٨٨٩ ـ ١٩١٤ بصفة أساسية بالإضافة إلي مذكرات الساسة وزعماء هذه الفترة.

قام حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية (١٩٠٧ ـ ١٩١٤) كغيره من أحزاب الفترة على أكتاف طبقة الأعيان المصرية، التي لم تعد طبقة ريفية بحتة كما كانت عند نشأتها، فقد انتقل عدد كبير من أفرادها وبالذات أصحاب الملكيات الكبيرة منهم للمدن، بعد أن أصبحوا في وضع اجتماعي يبيح لهم الإقامة في المدن والمشاركة في الحياة العامة والحركة السياسية وليتيحوا لأبنائهم قدراً أكبر من التعليم. فكان حسن باشا زايد عضو حزب الإصلاح يمتلك سرايا بالظاهر ومحمد باشا الشريعي سرايا بالزيتون.

ثم أن بعض أبناء هذه الطبقة اصهروا إلي الطبقة القديمة من الذوات وهي ظاهرة بدأت على نطاق ضيق ثم ما لبثت أن اتسعت في ظل الاحتلال، حتى أن بعضهم قد تزوج إحدى بنات الأسرة الحاكمة كحسن بك بكري.

وبالتقاء الأعيان وبقايا الطبقة التركية الحاقدة على الاحتلال تبدأ الحركة السياسية لكبار الملاك في تلك الفترة وأصبحنا أمام طبقة واحدة من كبار الملاك، مستكملة كيانها الاقتصادي والإداري ثم بعد ذلك كيانها السياسي في الجيل اللاحق بعد هزيمة عرابي لتتبؤا صدر المجتمع في ظل الاحتلال كطبقة خاصة.

كانت الرغبة في إثبات الكيان في داخل المجتمع دافعاً لهذه الطبقة إلي الاشتغال بالسياسة والعمل الحزبي وهو ما أكده سعد زغلول في مذكراته في الكراسة رقم ٩، ص ٤٠٠ بقوله " إن ذوي الوجاهة والنفوذ يشتغلون بالأمور العامة بقدر ما يكسبون بسبب الاشتغال بهم من السلطة والنفوذ في الحياة العامة ".

ومن صحيح القول أن قيادات الأحزاب المصرية كانت تنتمي لطبقتين الأولي البرجوازية الكبيرة بكل أجنحتها والثانية هي الطبقة البرجوازية الصغيرة وجناح المثقفين منها بالذات، ومع ذلك فمن الواضح أن الملكيات الزراعية الكبيرة هي الغالبة في عناصر البرجوازية وهذا أمر طبيعي في بلد نظامه الاقتصادي هو الزراعة.

وإذا كانت طبقة الأعيان انخرطت في صفوف الأحزاب المصرية أملاً في تأصيل هيبتها، وتدعيم مركزها فإن انضمام هؤلاء إلي حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية كان يحقق لهم الأمان والاستقرار لهم ولأبنائهم المتطلعين إلي شغل كبري الوظائف الإدارية خاصة أن

علاقة الحزب بالخديوي الذي كان يعيش في عصر الوفاق مع صاحب السلطة الفعلية (المعتمد البريطاني) ، كانت واضحة وضوح النهار فأخذوا مبهورين أملين في انعكاس هذا عليهم فأنضم الكثيرون منهم إلي عضويتهم منسلخين عن غيره مما لا يحقق لهم فائدة أو مصلحة بل يغريهم أكثر مما ينفعهم .

والحقيقة التي لا شك فيها أن معظم أعضاء الحزب من الأعيان، كانوا ينتمون إلي الشريحة الكبرى من طبقة ملاك الأراضي الزراعية بمصر، فمحمود أبو حسين قد بلغت ملكيته ١٠٠٠ فدان وزايد جلال ٣٠٠ فدان ومحمد الشريعي بلغت ملكيته آنذاك ٨٠٠ فدان ومن هذا كله فإن رؤية هذه الطبقة للأحداث قد تحددت بناء على الانتماء الطبقي لها، وكذا الخلفية التعليمية التي قد حصلت عليها بالإضافة إلي رغبتها في التطلع إلي السيادة والنفوذ استناداً إلي ا تملكه من معايير الثروة والجاه آنذاك .

ومع هذا فإن الحزب أيضاً ضم من سراه المدن ووجهائها عدداً غير قليل مثل حسن بك راسم ومحمد بك الرمالي الذي يعد من الشريحة الكبرى للطبقة البرجوازية المصرية وكان من ضمن هؤلاء إلياس بك المحامي .

ولم يقتصر الحزب في عضويته على كبار ملاك الأراضي الزراعية وذواتهم وأثرياء المدن، بل ضم إلي عضويته أيضاً السيد/ عبد الحميد البكري شيخ السجادة الوفائية وشيخ مشايخ الطرق الصوفية فيما بعد . وقد تلقي علومه النقلية على يد جماعة من كبار العلماء الأزهر كما اتجه إلي دراسة العلوم العقلية فجمع بين الاثنين ودرس وتعلم الفرنسية فأجادها قراءة وكتابة وثقافة، وكانت أسرته تدخل في شريحة كبار الملاك لما كان بحوزتها من أوقاف وأراضي بلغت ٦٤٦ فدان .

كما ضم الحزب بين أعضائه السيد/ أحمد بك رافع الذي شغل كسابقة عضوية مجلس إدارة الحزب في فترتين متتاليتين وهو سليل بيت واسع الثراء، وقد أنشأ في بلدته طهطا في عام ١٨٩٨ مدرسة خيرية سماها (فيض النعم)، كما شغل عضوية الحزب أيضاً محمد بك أبو شادي الذي كان بالإضافة إلي كونه محامياً وصحفياً شيخاً لسجادة السادة الأحمدية .

كذلك كان على رأس الحزب أزهري معمم هو الشيخ على يوسف الذي تولي في نهاية حياته منصب شيخ السجادة الوفائية وإن كان دوره الصحفي طغي على بقية أدوار حياته .

وإذا كان الحزب قد ضم هذا الجمع من مشايخ الطرق وعلماء الدين من المسلمين فإن عضويته قد فُتحت لتضم بين البارزين إلياس بك عوض عضو المجلس الملي القبطي مما أثر على مواقف الحزب وتوجهاته تجاه القضايا المجتمعية.

وقد ضم الحزب أيضاً بالإضافة إلي هؤلاء مجموعة من المثقفين وهم نتاج بعثات محمد على والصالونات الأدبية والصحافة المصرية واختلاط الثقافات التي حدثت في المجتمع المصري. لقد حلت طلاسم الهيروغليفية، ونشطت المصارف والعلوم بفضل ما استحدث من أنظمة ومؤسسات تعليمية امتداداً لعصر التنوير وأصبحت الموجة الغربية الزاحفة تحمل في ثناياها أثار الاستعمار والثقافة والفكر الحديث والعادات والتقاليد الأوربية.

وفي ظل هذا المناخ العام ظهر جيل ما بعد الاحتلال غير أن مثقفي حزب الإصلاح حملوا طابعاً معيناً وفرته لهم الظروف الخاصة بنشأتهم وانتمائهم الطبقي فنجد منهم يوسف بك صديق عضو مجلس إدارة الحزب، وقد نال شهادة البكالوريا من مدرسة هكسيوس بجنيف وحصل على ليسانس الحقوق من باريس. والبعض منهم قد استفاد من البعثات الحكومية كأحمد حشمت الذي حصل على الدكتواره في القانون من فرنسا، وكذا حسن رفقي الذي نال دكتواره الطب من الجامعات الفرنسية. واستفاد أيضاً من بعثات إسماعيل إلياس بك عوض المحامي الذي نال دبلومة الشريعة من مدرسة القانون بباريس.

وكان تواجد هؤلاء بالخارج خاصة فرنسا عاملاً مهما في اطلاعهم على مؤلفات مفكريها وكتباها فاحمد حشمت وكيل الحزب كان يتباهى بحفظ مؤلفات الأدباء الفرنسيين مثل لامارتين وفولتير وراسين.

والذي لم يحظ بالسفر إلي فرنسا فقد اطلع ودرس بالمدارس الفرنسية في مصر كأحمد تيمور وكذا صالح حمدي حماد الذي تعلم الفرنسية بمدارس "فالو" بالإسكندرية و"الفرير" بالقاهرة.

وإذا كان مقياس ثقافة العصر دراسة القانون التي تتيح لأصحابها تبوأ المناصب العليا والكتابة في الصحافة وقيادة المجتمع فإن الحزب جمع بين أعضائه خاصة في مجلس الإدارة واللجان الرئيسية أثني عشر عضواً يحملون شهادة ليسانس الحقوق. بل أربعة منهم لم يكتفوا بشهادة الليسانس فدرسوا دراسات عليا استكمالاً لسابقتها وكان أخر الدارسين

منهم سيد أفندي كامل الذي حصل على الدكتوراه في القانون والاقتصاد من الجامعات الفرنسية أيضاً.

وإذا كنا قد أطلقنا لفظ (مثقفو الحزب) على إطلاق المعني فإننا سنحاول أن نقسم كلاً منهم حسب إسهامهم العلمي فالحزب كان بين صفوفه :

أ) الصحافيون والكتاب المفكرين.

ب) موظفو الدولة سواء من المدنيين أو العسكريين.

ج) المحامين.

ولكن لا يعني هذا أنه كان هنالك قيود تمنع الجمع بين الفئة الأولي والثالثة أو الثانية والأولي فمحمد أبو شادي كان محامياً وصحفياً. والمنفلوطي كان أدبياً موظفاً، وإن كان الحزب قد ضم بين أعضائه حاملي قلم من المحترمين. وكان على رأسهم الشيخ على يوسف رئيس الحزب صاحب جريدة المؤيد ومدير تحريرها الذي كان أول اصدر لها في الأول من ديسمبر ١٨٨٩ لتصبح آنذاك الجريدة الإسلامية الوطنية بعد خلوا الساحة من هذا النوع لفترة ليست بالقصيرة، وقد ظل على رأس هذه الجريدة حتى اعتزال الصحافة في ٤ مارس ١٩١٢ ولا يعني اعتزال الصحافة تخليه عن رئاسة الحزب.

وقد ولد على يوسف في عام ١٨٦٣ ببلدة بلصفورة التابعة لمديرية جرجا وقتئذ. وقد نال تعليمه في الأزهر على يد الأساتذة المشاهير ولم يكتف بالدراسة في الأزهر فارتارد الأندية والصالونات الأدبية التي كانت تضم الأدباء الكبار من أمثال الشيخ حسن المرصفي ولطيف سليم الحجازي وعلي باشا مبارك. وشارك في الجمعيات الأدبية كجمعية "الاعتدال" التي أنشئت في القاهرة عام ١٨٨٥ وضمت نخبة من أدباء العصر وطائفة من كبار رجال الأقلام وقادة الفكر، وكانت تبحث في المواضيع الأدبية والاجتماعية.

كل هذه العوامل أفرزت لنا في النهاية فكر على يوسف الصحافي ورجل السياسة الحزبي الذي امتاز أسلوبه بالموازنة بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية وكان يؤمن بالاعتدال والتروي على حسب وصف عبد العزيز البشري في المختار في الجزء الأول من صفحة ٢٨٢

أما حافظ عوض الساعد الأيمن للشيخ على يوسف فقد بدأ حياته الصحفية مترجماً في مجلة الموسوعات. وقد اختارته جريدة التيمز الإنجليزية ليكون مراسلاً خاصاً بها لتغطية رحلة الخديوي عباس حلمي للأراضي الحجازية.

وله العديد من المؤلفات مما يدل على سعة اطلاعه واتساع معارفه مثل "فتح مصر الحديثة" و"نابليون في مصر" وله أيضاً كتب بعناوين "حياة الشباب" و"اليتيم" وكلها تدور حول المشاكل الاجتماعية.

ومن مثقفي الحزب أيضاً الذين اشتغلوا بالصحافة محمد بك مسعود وقد ألم بالثقافة العربية والفرنسية وكان يجيد اللاتينية مما جعل كتابته وفكرة متأثراً بالجمع بين العديد من الثقافات وهو ما أنعكس على كتاباته وترجماته فقد ترجم العديد من الكتب التاريخية والاقتصادية فترجم جوانب ولمحة عن تاريخ مصر(لكلوت بك) وحضارة العرب لجوستاف لوبون ومصر في القرن التاسع عشر(لادوارد لوبون).

كذلك ضم الحزب إلى جانب الأسماء اللامعة من الصحافيين مجموعة من الكتاب والمفكرين وكان على رأسهم احمد بك تيمور الذي لعبت نشأته دوراً في فكره فقد كان يجيد العربية والفرنسية والتركية وشيئاً من الفارسية ، كما أنه أتصل بنخبة من مشايخ الأزهر كما حضر دروس الإمام محمد عبده وتأثر به واقترب منه إعجابا، وقد دعا إلى إنشاء مجمع اللغة العربية وكان على شاكلته صالح حمدي حماد الذي ألف العديد من الكتب وترجم العديد من الأعمال.

كما ضم الحزب أيضاً أديباً احترف وظائف الحكومة وهو السيد لطفي المنفلوطي أزهري الثقافة، صاحب كتاب النظرات وكذا العبرات كما عرب غادة الكاميليا وهي التي عرفت "بماجدولين" وهي من الروايات التي تمتاز كتابتها ببراعة الأسلوب والقدرة على وصف المشاعر الإنسانية.

فبذلك حظي الحزب بمجموعة من الكتاب والصحافيين كانت لديهم القدرة على التعبير عن فكرة الحزب وقضاياه وكانوا يمثلون تياراً فكرياً أميل إلى الوسطية والاعتدال.

وكذلك ضم الحزب مجموعة من كبار المحامين الذين كان معظمهم من خريجي الأزهر إلا أنهم سرعان ما درسوا القانون في المدارس المصرية والفرنسية. وحزب الإصلاح ضم بين أعضائه من هذه الفئة محمد أبو شادي، واحمد بك الحسيني، وأمين أفندي التوني واحمد بك رمزي الذي شغل منصب أمين صندوق الجمعية العمومية للمحامين كان له أثره على مواقف أعضاء الحزب من القضايا المجتمعة.

لقد كان الانتماء الطبقي لأعضاء الحزب عاملاً مهماً في كل مواقفه تجاه قضايا المجتمع على اختلاف أشكالها .

الحزب وقضايا التعليم:

إذا كان الإصلاح لم يعط للقضايا الاجتماعية والاقتصادية الأخرى اهتماماً في برنامجه فإنه لم يهمل مسألة التعليم وقضاياه سواء في برنامجه الذي أعلن في لندن تحت عنوان (برنامج الحزب الوطني المصري) أو حينما تم الإعلان عن الحزب في القاهرة بصفة رسمية . ويلاحظ عدم الاختلاف في صياغة برنامج الحزبين في الجزء المتعلق بالتعليم على وجه الخصوص ـ ولكن إذا جاز لنا أن نتتبع مواقف الحزب من قضايا التعليم فإنه يجب علينا أن نتعرف على ملامح السياسة البريطانية وموقفها من التعليم، فينبغي لنا أن نعترف بأن الاحتلال لمصر لم يفلح في شي مثلما نجح في تحقيق السياسة التي اتبعها منذ بداية عهده، فلقد ارتفعت نسبة الأمية حتى بلغت ٩٢ ٪ من مجموع السكان من الرجال، ٩٩٪ من النساء كما كان عدد التلاميذ المقيدين بالابتدائي لا يتجاوز ٤٪ ولقد تم إغلاق عدة معاهد كانت مزدهرة قبل مجيء الاحتلال كمدرسة الطب البيطري والآثار والزراعة ومدرسة المكفوفين والخرس وأوقفت البعثات التعليمية بحجة أن الحكومة لا تطلب من المدارس إلا تخريج موظفين وأن المدارس الموجودة بها كافية لهذا الغرض . وقد أخذ هذا المخطط يحقق الهدف منه حتى كانت الإنجليزية هي اللغة الوحيدة في التعليم الابتدائي أي بنسبة ١٠٠٪ وبنسبة ٩٦٪ في الثانوي ، ٧٦٪ في التعليم العالي وكان الهدف من هذه السياسة إنتاج عدد كاف من الموظفين يعملون في خدمة الإدارة البريطانية طائعين .

وكان هذا المسلك من نظارة المعارف من أهم أسباب استياء المصريين من الوجود الاحتلالي فكانت مسألة التعليم بحق هي ميدان المعركة السياسية بين الوطنيين والاحتلال فارتفعت أصوات المصريين من كل الطبقات تنادي بإصلاح الأوضاع التعليمية . وتركزت تلك المطالب بتعريب لغة التعليم وكذا الاهتمام بالبعثات العلمية . فما هو موقف حزب قد وضع التعليم وقضاياه المختلفة نصب عينه وجعل منه أحد بنود برنامجه الرئيسية، وما هو مفهوم التعليم والغرض منه وأهميته في نظر هذا الحزب؟

لم يكن مفهوم التعليم لدى بعض أعضاء هذا الحزب حشد العقل نظريا بكل ما هو صعب مما يعرف "بالإسراف العلمي" بل هو على أساس معرفة الواجبات نحو الذات ونحو العالم بأسرة وهو نفس ما أكدته المؤيد بالدعوة إلى تحرير العقول من التشيع للمذاهب فقالت (نريد في هذه المدرسة أنه إبقاء للمجتمع إلا إذا عمل بدور العقل وتأثر بالمؤثرات الدنيوية).

ولكن إذا كان هذه مفهوم الحزب وقيادته عن التعليم والغرض منه فما هو موقفه إزاء قضايا التعليم التي فرضت نفسها حينذاك والتي فرضت نفسها من خلال سياسة الاحتلال الرامية إلى نجلزة الإدارة المصرية ، إزاء هذه السياسة فلقد بدأت بعض الأصوات ترتفع مطالبة بوضع حد لسياسة نجلزة التعليم.

وأخذت المؤيد تدعو إلى مساندة اللغة العربية والتمسك بها بقولها "نطلب إلى نضارة المعارف . . أن تبلغنا منيتنا وتروي غايتنا بشد أزر اللغة الشريفة العربية لغة البلاد فإن أجابت سؤلنا استحقت رضا العموم" كما أنها تواصل هذه الحملة في فترات مختلفة داعية للتمسك باللغة العربية كلغة للتعليم.

وكان الخديوي منذ تولي عرش البلاد مقتنعاً بوجوب أداء المواد باللغة العربية، فكأن هذه الدعوة للتمسك باللغة العربية كلغة للعلم لم تكن جديدة على لسان حال حزب الإصلاح الذي يترأس تحريرها الشيخ الأزهري على يوسف، إلا أن هذه الدعوة قد أخذت تشتد في فترة لاحقة، وخاصة أثناء تولي سعد نظارة المعارف الذي تشككت المؤيد في إمكانيات نجاحه كناظر لها فانتقلت المعركة ـ معركة التعريب ـ من على صفحات الصحف إلي منبر الجمعية العمومية فنجد أن رئيس تحرير المؤيد ورئيس الحزب في فترة لاحقة وعضو الجمعية العمومية حينذاك يتقدم بالتماس إلى الجمعية العمومية (بالموافقة على طلب تعليم العلوم في مدارس الحكومة وامتحان طلبتها باللغة العربية وأن يكون الشروع في ذلك في السنة المقبلة).

ولا تفتر همه ـ جماعة المؤيد ـ يوميا عن التعرض لهذا الموضوع تحت عناوين مختلفة كلها ترمى ظاهرا إلى الدعوة إلى التعليم باللغة العربية وباطنا إلى استثارة الجماهير ضد سعد ناظر المعارف وإظهاره بأنه منفذ للسياسة البريطانية الساعية إلى صبغ التعليم بالصبغة الإنجليزية، كما أنه إمعاناً في إبراز صلاحية اللغة العربية كلغة للدراسة والعلوم الحديثة قامت "المؤيد"

بنشر الجزء الثاني من ديوان حافظ في حال اللغة العربية . ومن نفس المنطلق وفي فترة لاحقة فإن "تيمور" العضو البارز بالحزب طالب على صفحات المؤيد بالمجمع اللغوي الذي يكون عمله (تعريب الألفاظ والاصطلاحات الفنية بما يقابلها من الألفاظ العربية واختيار الكلمات الموافقة فيما لا يكون له نظير في العربية باشتقاق أو غيره، وهذه الدعوة الغرض منها إحياء مجد اللغة العربية وإثبات صلاحيتها كلغة للعلوم الحديثة .

وإزاء ما قام به سعد من تخصيص بند في الميزانية لتدريس اللغة العربية للمدرسين الإنجليز لكي يقوموا بعد دراستها بالتدريس بها، أرسل مدرسين مصريين لإنجلترا لتعليم اللغة العربية للإنجليز الذين يريدون الدخول في خدمة الحكومة المصرية مما أثار ضده معارضة شديدة فأخذت لسان حال الحزب تطرح عليه التساؤلات عن هذا الموقف محملة إياه تبعه هذا التصرف فقالت "إن مثل هذا كان يصلح من الوزير السابق لأن الناس كانوا في يأس كبير من الإصلاح، أما الآن فسعادة الوزير الحالي قال عنه سير جورست إن شهامته تأبي أن يجري شيء في النضارة لا يوافق عليه" .

وكان حزب الإصلاح قد أراد وضع سعد موضع المسئولية أمام الجماهير فكأن الدعوة لتعريب التعليم اتخذت سلاحاً للتخلص منه أكثر من خدمة الهدف الذي ترمي إليه الدعوة وإمعانا في تقوية هذا المطلب ودحض الرأي المعارض له فإن المؤيد قامت بإجراء حوار مع أحد علماء اللغة العربية من السوريين لتأكيد فاعلية اللغة العربية وإمكانية استخدامها في تدريس العلوم العصرية والفنون الحديثة .

وإزاء ما حدث من تغير وزاري في مصر فإن أحمد حشمت وكيل الحزب قد تولي نظارة المعارف خلفاً لسعد زغلول وأصبح أحد قادة هذا الحزب ومسئولاً عن تحقيق هذا المطلب الذي وضعه الحزب في صدر برنامجه والذي طالما تشدق به أعضاء الحزب سواء من فوق منابر الهيئات النيابية أو على صفحات جريدة المؤيد .

فإزاء ذلك نجد أن حشمت قام بإنشاء قلم للترجمة يشتغل بترجمة كتب الدراسة لمدرسة المهندسخانة والزراعة إلي اللغة العربية كما أن حشمت أستهل عهده بأحداث تغيير في لغة الدراسة بمدرسة الزراعة فأمر بأن يكون التعليم باللغة العربية لجميع برامج فرق السنة الأولي عدا اللغة الإنجليزية ابتداء من شهر أكتوبر ١٩١٠ وأن يعمم على بقية السنوات بالتوالي،

كما أنه قد أصدر مشوارا للمدارس الثانوية جاء فيه " قد قررت النظارة تدريس الجبر باللغة العربية في السنة الثالثة والهندسة في السنة الرابعة بالمدارس الثانوية " .

وإزاء هذا فلم يعد لسان حال الحزب يعاود طرق الموضوع من جديد إلا في ثوب التفاخر بأن حزب الإصلاح كان أسبق من غيره من الأحزاب في الدعوة للتعريب .

فسواء كانت الدعوة للتعريب الغرض منها إخراج سعد وتعريته جماهيرياً، أو من منطلق وطني إسلامي فإن الحزب استطاع من خلال ما قام به من دعاية مضادة لكل ما طرح لتشويه هذه الدعوة من خلال جهود أعضائه في إطار مناصبهم فإنه قد حقق ولو جزئياً جزءاً من برنامجه الخاص بالتعليم والتعريب معتمداً على جريدته وأعضائه القياديين في ذلك .

ولكن إذا كان الحزب قد أعطي اهتماماً لتعريب التعليم فإن ذلك لا يعني إهماله جانباً لا يقل أهمية عن التعريب وهو مجانية التعليم التي بدأت تتلاشى من خلال السياسة البريطانية الساعية إلي إبعاد أبواب العلم والوظائف عن المصريين . لقد طالبت المؤيد "بتعميم التعليم وجعله إلزامياً وهو الأساس التي تبني عليه الأمة هيكل عظمتها " .

كما أن على يوسف أثناء عضويته بالجمعية العمومية لم ينوان عن مطالبة الجمعية بالموافقة على إعطاء أبناء الفقراء حصتهم من التعليم المجاني، مع رجاء التوسع في ذلك في المستقبل مع إباحة دخولهم مجاناً في السنة الأولي من القسم الابتدائي المحظورة عليهم قانوناً ولكن ما الذي دفع بعلي يوسف إلي هذا المطلب حينذاك؟ هل كان رغبة في إحراج سعد زغلول أمام الجماهير لتأكد الأول من عدم قدرة الأخير على تحقيق هذا المطلب الجماهيري أم أنه كان مدفوعاً بعامل الرغبة الوطنية الصادقة، أم أن دعواه كانت رغبة في جذب الانتباه إليه في الفترة الباكرة لتكونيات الأحزاب السياسية في مصر، فتكون هذه المطالب نوعاً من الدعاية للحزب المرتقب . سواء صدقت إحدى هذه الاحتمالات إما صحت جميعها فإننا لا نغفل أهمية هذا المطلب وقيمته كنوع من التحدي للسياسة البريطانية المضادة لكل تحرك وطني، ولذلك فإننا نجد هذا المطلب قد توج ما عرف ببرنامج الحزب الوطني المصري الذي قدم إلى سير جراي في لندن .

كما طالبت المؤيد في ٢٥ سبتمبر ١٩٠٩ بالتوسع في مجانية التعليم فقالت "نحن نأمل أن يتسع نطاق المجانية في المستقبل وأن يدخل في أقسام التعليم كلها إيتائي ووسط وعال" إلا أن هذه الدعوة المتشددة إلى إباحة المجانية في مدارس نظارة المعارف سرعان ما تبدأ في الهدوء

وتأخذ شكلاً أقل ما يقال عنه رده أو تأخذ شكلاً تراجعياً وخاصة بعد أن تولي أحمد حشمت وكيل الحزب نظارة المعارف وأصبح عليه أن يتعامل بصورة مباشرة مع سياسة قد رسمت منذ بدايات عصر الاحتلال البريطاني لمصر فنجد أن المؤيد التي طالما سطرت بالمقالات الداعية إلى تعميم المجانية في كل أفرع التعليم تطلب من الحكومة الإكثار من المدارس الابتدائية مع تقليل مصاريفها عما تتقاضاه.

ومن هنا يتضح لنا أن موقف الحزب من مجانية التعليم رغم كونه جزءاً أساسياً في برنامج هذا الحزب فقد التزم به لفترة زمنية وتبني قضاياه إلا أن هذا الموقف لم يكن من منطلق وطني بحت بقدر ما هو سعي في تعرية سعد زغلول أمام الجماهير، حتى يمكن التخلص منه دون أن يكون شهيداً على مذبح سياسة الوفاق. وهذا يفسر لنا تراجع الحزب عن سابق دعوته، حينما تولي أحد أعضائه نظارة المعارف فلم تعد المؤيد تطرق هذا الموضوع كما كان من قبل، لقد تراجع الحزب عن الفكرة ومال إلي القبول بمبدأ "الوسطية" بالنسبة للمجانية والمصاريف.

ورغبة في التوسع في التعليم وتحقيقاً للفائدة المرجوة منه فقد بدأت تلوح بالأفق الدعوة إلى ضرورة إنشاء الجامعة المصرية وقد حمل في البداية مصطفي كامل لواء هذه الدعوة على صفحات اللواء منذ أكتوبر ١٩٠٤ ثم عاد وطرح الفكرة من جديد في يناير سنة ١٩٠٥ مستحثاً الأغنياء على المساهمة في هذا المشروع فأصبحت هذه الفكرة مثاراً للجدال والنقاش، فنجد أن حافظ عوض في نفس الفترة يطرح تساؤلاً "أيهما أنفع للقطر المصري في حالته الحاضرة الكتاتيب أم مدرسة كلب عالية" وقد استدرجت المناظرة كثيراً من الكتاب للاشتراك فيها على صفحات الجرائد المختلفة وانتهت بغير صائل ولا نتيجة.

ولم تتخذ خطوات عملية نحو إنشاء الجامعة حتى دعا مصطفي كامل الغمراوي من بني سويف إلى العمل لإنشائها في ٣٠ سبتمبر ١٩٠٨ فسارع الكثيرون من الأثرياء والأعيان من أعضاء الحزب وغيرهم فيما بعد ملبين النداء فاكتتب خالد بك سعيد بمبلغ مائة جنيه وكذا حنفي بك ناجي واحمد بك رمزي المحامي كما أن محمد بك راسخ قد اكتتب بخمسمائة جنية فبلغ ما جمعه هؤلاء قرابة ١٧٠٠ جنية من مجموع مبلغ الاكتتاب الذي بلغ ٤٨٨٥ جنية كما واصل أعضاء الحزب المشاركة في الاكتتاب فقدم على يوسف مائة جنية، وقدم حسن رفقي وزوجته خمسمائة جنية كما تبرع حسن بك زايد بخمسين فدان لنفس الغرض، بل أن خالد

بك سعيد عضو الحزب قد انتخب عضواً من أعضاء اللجنة النهائية العاملة لمشروع الجامعة المكونة من خمسة عشر عضواً.

وبدأت المؤيد حملة مكثفة لدفع الناس إلى الاكتتاب لهذا المشروع الجديد فذكرت "أن الأموال التي تدفع في سبيل الجامعة هي أموال تدفع في خير الأمور"، وخاصة أن اللورد كرومر سعي إلى ضرب هذا المشروع في نفس الفترة بطرح الدعوة من جديد لإنشاء الكتاتيب زعماً بأن الأمة أحوج إلى التعليم الأولي منها إلى التعليم العالي فتصدي احمد حافظ عوض لهذه الدعوة الرامية إلى قتل مشروع الجامعة في مهده ـ بعقده مقارنة بين الجامعة والكتاتيب انتهي منها إلى حاجة الأمة إلى الاثنين لأن كلاً الشيئين يرمي إلى غرض واحد هو التعليم، وما الفرق بينهما إلا كالفرق بين أوصاف شيئين من جنس واحد ومن هنا يتضح لنا أن قيادات الحزب ـ فيما بعد ـ قد اتبعوا سياسة الباب الموارب في البداية، فهم لم يهاجموا مشروع عميد الاحتلال ولم يتخلوا عن تأييد الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية وتدعميها.

إلا أن على يوسف قد أسفر عن وجهة ووجوه جماعته في تأييد المشروع ومناهضة أي دعوة تكون حجر عثرة في سبيله، فقد وجه خطاباً مفتوحاً إلى عميد الاحتلال قال فيه "إن الجامعة هي روح الأمة... وأن طريقة التعليم في الكتاتيب مضرة بالأمة ولا تصلح إلا بالجامعة التي تخرج لهم معلمين".

ويواصل الحزب وصحيفته التأييد للمشروع الجديد بنشر كل ما يتعلق بالجامعة وأهدافها والغرض منها، وذلك لتقريب هذه المفاهيم الجديدة للناس وتشجيعهم على الالتحاق بها.

كما قامت المؤيد بالدعاية لمجلة الجامعة بل أن اثنين من محرريها قد شاركا فيها مع إبراز أهمية هذه الدورية وقيمتها بالنسبة لهذا المشروع "فهي الواسطة الوحيدة التي يستطيع بها الراغب في مصر وخارج القطر الاستفادة من علومها".

ولقد تزعمت لسان حال الحزب الدعوة إلى إدخال أفرع جديدة للدراسة في الجامعة المصرية كدراسة الآثار وآداب اللغة العربية وعلاقتها باللغة السامية وكذا الاجتماع "هذه ثلاث علوم من أعظم ما ينبغي لقيام أمر مصر وارتقاء لغتها وتاريخها وأفكارها. وكذلك فقد طالبت بإدخال علم الاقتصاد السياسي إلى مناهج الدراسة بالجامعة". وتشجيعاً لدور الجامعة المصرية وإبراز أهميتها بالنسبة للمجتمع المصري فإن المؤيد كانت تقوم بإعداد

ملخصات للمحاضرات التي تلقي في الأفرع المختلفة . وكأن الحزب اتخذ من لسان حاله أداة لنقل الثقافة والعلوم العالية إلى بقية القطاعات التي ربما حرمت من حق الالتحاق بالجامعة المصرية حينذاك ، فيمكن لنا أن نقول إن حزب الإصلاح اتخذ من جريدته أداة لربط المجتمع بالجامعة وكذلك الجامعة بالمجتمع بغرض تشجيع الإقبال عليها وهي في مهدها .

ولكن ما هي الطبقة التي يمكن لها أن تحصل على التعليم العالي في نظر هذا الحزب وتتزود من مناهل الثقافة الحديثة وقد تزداد معرفة وخبرة واستنارة من مناهج الدراسة المتطورة التي لابد أن تزدهر مع افتتاح الجامعة المصرية؟

لقد حدد احمد حافظ عوض العضو البارز بالحزب نوعية هؤلاء الطلاب الذين يحق لهم التطلع إلى التعليم العالي بقوله "تكون الجامعة عامة تدرس فيها العلوم التي تتثقف بها أذهان أولاد المصريين عموماً بما فيهم من أولاد الأعيان ووجهاء المديريات جميعاً . . . أما الكتاتيب فتكون مخصوصة لأولاد أهالي القاهرة" .

ومن هنا تتضح لنا النظرة الطبقية التي سيطرت وسادت على فكر أعضاء هذا الحزب في قصر التعليم العالي على أبناء طبقتهم فقط وما دونها فلديه القديم والقائم ساعين بهذا إلى أيصاد الأبواب على من عداهم من الطبقات ليس في مجال التعليم فحسب بل في مجالات الوظائف العليا .

لهذا فإن دعوتهم للتعليم الجامعي سواء أكان الغرض منها محاربة سياسة الاحتلال التعليمية والوظيفية أم لا فإنها لم تخل من السعي لتحقيق مكاسب طبقية بعيدة المدى ، إلا أننا مع ذلك لا يمكننا إغفال دورهم في تعضيد مثل هذا المشروع الذي احدث هزة في كيان المجتمع المصري حتى يومنا هذا .

ومن منطلق اهتمام الحزب بقضايا التعليم فقد ابدي التفاتاً لا بأس به إلى البعثات العلمية التي كانت تتعارض مع المخطط البريطاني الرامي إلى السيطرة على مجالات الإدارة .

ولكن يتولى سعد نظارة المعارف أعيدت البعثات عندما اشتدت الحاجة إلى المعلمين غير أنه اختار إرسالهم لإنجلترا .

وقد أثار هذا الحصر للبعثات على إنجلترا تأثر الوطنين المصرين مما دفع بالمؤيد إلى انتقاد هذه السياسة داعية إلى عدم تركيز البعثات على دولة واحدة دون غيرها لعدم استفادة مصر من هذا . وقد رددت هذه المعاني في العديد من مقالاتها مبرزة ضرورة عدم قصر البعثات

على دولة " ذلك لأن كل دولة خصت بامتياز في معرافها . . . فحتي نرقي مدنيتنا يجب أن نغترف من كل معين " .

وعلى الرغم من استمرار الحكومة في سياستها في تركيز البعثات العلمية على إنجلترا في الفترة اللاحقة فإن المؤيد لسان حال الحزب لم تتعرض لهذا الموضوع لا من قريب ولا من بعيد ـ فقد كان على رأس وزارة المعارف وكيل الحزب ـ ولم تشر كلية إلى هذا الموضوع إلا حينما طالبت بالترحيب بأساتذة الجامعة العائدين من بعثاتهم . وهذا الموقف يؤكد أن موقف الحزب وصحيفته من موضوع البعثات لم يكن عن إيمان صادق بأهميتها لتطوير المجتمع المصري بقدر ما استخدمت كسلاح لمحاربة خصوم الخديوي السياسيين حينذاك خاصة سعد زغلول .

ولكن إذا كان الحزب قد اهتم بالحفاظ على اللغة العربية كلغة للتعليم ومجانية التعليم والتعليم العالي فإنه لم يهمل الاهتمام بالتعليم الفني وخاصة التعليم التجاري .

وهذه الدعوة تنم عن رغبة البرجوازية المصرية في توسيع الدراسات التجارية إزاء ما أصابها من جراء منافسة رؤوس الأموال الأجنبية لها والتضييق عليها ، وقد وضح هذا من طلب صديق من الحكومة زيادة أعداد المدارس التجارية .

فهذه الدعاوى تعكس الإحساس بالخطر من الرأسمالية الأوروبية وتحكمها في الاقتصاد المصري لخبرتها وعلمها ، وفقدان المصريين الكثير من الوظائف الهامة لعدم خبرتهم بالنواحي التجارية ، فلذلك فإن احمد حشمت وكيل الحزب أثناء توليه نظارة المعارف قد أولي اهتماًما كبيراً لهذا الفرع من الدراسة فأنشأ لتعليم المحاسبة والتجارة مدرستين ليليتين إحداهما بالقاهرة وثانيتهما بالإسكندرية ، ثم أنشأ مدرستين نهاريتين للمحاسبة والتجارة إحداهما عالية وثانيتهما متوسطة وجعل التعليم فيهما باللغة العربية ، إلا من بعض المواد فقد درست باللغتين الإنجليزية والفرنسية .

فمن هنا يتضح أن هذا المسعى لم يكن إلا نتيجة الإحساس بحاجة البلاد إلى هذا النوع من المدارس لتلافي النقص الواضح الذي بدأت أثاره تنعكس على موقف هذه الطبقة أمام منافسة مثيلاتها الأجنبية .

كما أن الحزب إذا كان قد أعطى اهتماماً بالتعليم التجاري فإن صحيفته إشارات إلى ضرورة الاهتمام بالتعليم الزراعي والصناعي " وهما قوام الحياة وأساس العمران " .

ومن هنا يتضح لنا أن موقف حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية من قضية التعليم جاء انطلاقاً من الرغبة في تقوية دعائم استقلال هذه الأمة بالدعوة إلى التعليم وكذا تعميمه ومجانيته والمساهمة في الدعاية للتعليم العالي والدعوة إلى التوسع في التعليم الفني وخاصة التعليم التجاري منه إلا انه لا يمكن نكران أن هذه القضايا لم تكن من هذا المنطلق فحسب بل استخدمت لتحقيق طموح الطبقة البرجوازية المصرية الساعية إلى السيطرة على مجالات الوظائف والثروة في القطر المصري حينذاك .

غير انه مع كل هذا لا ينكر دور هذا الحزب واتساق سياسته في هذا المجال مع مبادئه التي سعي إلى تحقيقها قدر الإمكان في التعليم والوظائف .

الحزب وقضايا المرأة:-

أعطي حزب الإصلاح اهتماماً بقضايا المرأة وحقوقها المجتمعية بصورة تتفق بلا شك مع تركيبة أعضاء الحزب الاجتماعية وانتمائهم الفكري بالإضافة إلى أوضاع المجتمع الذي تأثر بلا شك كما ذكرنا بالمتغيرات التي ألمت بالمجتمع المصري خاصة مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . وهنا فرضت قضية المرأة نفسها من حيث هل تستمر المرأة في حجابها وسفورها عن وجهها؟ كذلك هل يحق لها أن تتعلم والي أي مدي يحق لها أن تتعلم وهل يحق لها العمل وما هي أنواع العمل الذي يسمح لها الرجل بممارسته وإزاء ذلك وذاك هل يحق لها الاشتراك في العمل السياسي؟

ولقد كان السبب في ظهور هذه القضية وشدتها آنذاك ربما التزايد المطرد في إنشاء مدارس البنات والإقبال النسبي على تعليمهن فالإقدام على تشكيل عدد من الجمعيات النسائية التي استهدفت تجميع جهود المرأة من أجل نيل حقوقها بالإضافة إلى الاحتكاك مع الوافد الجديد، انعكس على كتابات الشيخ رفاعة في كتابيه "المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين" و "تخليص الإبريز" كما كان ظهور الصحافة النسائية مثل "الفتاة" الشهرية التي أصدرتها هند نوفل في الإسكندرية سنة ١٨٩٢ عاملاً مساعداً مما دفع بجريدة المؤيد أن تستكتب "زينب فواز" في السنة نفسها للكتابة عن قضايا المرأة وحقوقها، وهو ما وضح في ١٠ أبريل ١٨٩٤ ، ومقالتها في ٩ مايو ١٨٩٢ بعنوان "تقدم المرأة" كما أن الصحيفة التي خرج الحزب منها نشرت لقاسم أمين سلسلة من المقالات تحت عنوان "تحرير المرأة" وكذا مقتطفات من كتابه "المرأة الجديدة" وذلك ٢٠ مايو ١٨٩٩ .

ومع قيام الحزب فإن جريدته لم تتردد في الثناء على دعوة قاسم أمين بقولها "أي قاسم لسوف تأتي بصدق دعوتك الأيام" وذلك في عددها الصادر في ٢١ أبريل ١٩٠٩ .

كما هاجمت حجاب المرأة ناشرة فتاوى تؤيد هذا الرأي . كما لم تجد غضاضة في نشر بعض الآراء التي تدعو إلى الاختلاط في المدارس وذلك في أعدادها في شهري أكتوبر ونوفمبر ١٩١٠ .

انسحب هذا الموقف على نظرة الحزب في تعليم المرأة مما جعل لسان حاله يثني على افتتاح إحدى مدارس البنات ويصف القائمين عليها "بعقلاء الأمة" كما نشرت الإعلانات عن مدارس البنات وذلك في ١٦ أكتوبر ١٩٠٨ واصفة التعليم بأنه يحميها من السقوط بل أن الحزب دعا إلى "مساواة المرأة بالرجل في التعليم" وذلك في عدد ٥ ديسمبر ١٩٠٩ بل أنها أفردت صفحات لنقل محاضرات السيدة نبوية موسى تحت عنوان "المحاضرات النسائية للجامعة المصرية" وذلك في عدد ٢٥ أبريل ١٩١٢ إلا أن هذا الموقف سرعان ما بدأ يهتز ويصاب الحزب بردة فكرية واضحة إزاء هذه الدعوة وربما يرجع هذا إلى رغبة الحزب في مسايرة التيار المحافظ الذي كان سائداً حفاظاً على وضع الجريدة خشية أن يؤثر هذا على مكانة لسان حال الحزب في المجتمع .

وقد انسحب موقف الحزب بالنسبة لعمل المرأة ففي البداية كان ثمة ترحيب إلا انه سرعان ما بدأ هذا الموقف يتغير إلى العكس، ووصف خروج المرأة للعمل بأنه "نتاج للتقليد الأعمى للنساء في إنجلترا" .

لقد تذبذب الحزب في مواقفه تجاه قضايا المجتمع سواء بالنسبة للتعليم أو المرأة، مما يجعل مواقف الحزب تمثل نوعاً من الازدواجية وان مواقف الحزب لم تكن إلا انعكاساً لحالة المجتمع المصري الذي ظل يعاني من تقاليد موروثة وموجة زاحفة وتيار يحاول أن يوائم بين الاتجاهين بما يتماشى مع مصالحة واتجاهاته الخاصة .